القت اليه اوامرهـا النهائية وطلبت منه الا يزعجها او يدخل عليهـا لاي سبب من الاسباب . وقام على الفور بتنفيذ الاوامر ، فدخل الى الحمام وترك الخف على الباب ووضع قدميه في الخف الخشبي حتى لا يترك آثاره القذرة في البيت . ودخل البانيو بحذر وامسك العارضة الحديدية حتى لا ينزلق ويسقط وتكسر ساقه فلا تجد من يصحبها الى شوارع المدينة الكبيرة ، واخذ حماما ساخنا لانها لا تحب الماء البارد وجفف جسمه وبلل الفوطة بالمزيد من الماء حتى لا تشك في ذلك. وذهب الى المطبخ واعد لنفسه فنجان قهوة سادة لانها امرته الا يشربها الا سكر زيادة وبالرغم من انه يشربها مظبوط – وهي على كل حال لن تخرج من الغرفة قبل ان ينتهي من شرب القهوة ، وحتى اذا خرجت فمن المستبعد ان تتذوقها لتتأكد من خضوعه للاوامر ، اما اذا فعلت...

– دلوقت نعرف نشتغل في النفق !

وامسك المسطرة الحاسبة وبدأ . (كم طول الخازوق وسمكه ؟ كم خازوقا في المتر المربع ؟ كم مترا مربعا في النفق ؟ كم سيخ حديد في كل خازوق ؟ كم شكارة اسمنت وظلط ورمل ؟ كم جردل ماء ؟ كم طنا على كل خازوق حتى لا ينبعج او ينحني او يندفع الى باطن الارض الساخن فيذوب وينصهر ؟ كم سيارة ولوريا وحمارا ؟ كم رجلا وطفلا وامرأة سيتخذون من النفق مستقرا ولا تستطيع قوة في العالم ان تخرجهم منه ؟ كم ...)

– ليه ؟ ليه رفضوا الاقتراح ؟

وبصق من الغيظ وترك مكانه ومضى الى غرفتها وفتحها ووقف .

– ليه ؟ ليه رفضوا الاقتراح ؟

– اطلع برا واقفل الباب .

– ليه رفضوا ...

– انت مجنون ؟

– ليه لأ ؟

– ايه ؟ غسيل مخ للفيران ؟

– آ ، ايه المانع ؟

– متوحش ! فيه واحد عنده ذرة من الانسانية يعمل غسيل مخ للفيران ! اطلع برا .

كانت في غرفتها تعد حقائب السفر استعدادا للهجرة السنوية الى البحر ، وكان كنج كاتوس جالسا بوقار عظيم على فراشها الكبير يتفرج عليها وهي تجرب ملابسها وتلون شفتيها ومخالبها وحوافرها وتبدل من تشكيل شعرها استعدادا لموسم اللقاح الكبير ، وهي من لحظة لاخرى تندفع اليه وترفعه من الفراش وتقبله على شفتيه فيقاوم باسلوب رفيع ويمشي متكاسلا متجاسما ويعود الى مكانه الاول ويجلس وبعد لحظة يرفع يده اليمنى ويمسح من فمه آثار قبلة المرأة .

(زمان . زمان مرة يا سادة يا كرام) يضحك (كنت اسيب الشغل واروح انا كمان اتفرج ، اتمدد جنبه على السرير الكبير ولا يهمني ، ومرة ... مرة يا سادة ياكرام ، الهرمونات حصل فيها لخبطة ، انا مالياش دعوة، رحت قايم من محلي وجري عليها وهات يا ... كنج كاتوس صرخ وهاج وضرب الارض بذيله المخيف . انا من يومها بطلت اعمل اي حاجة في حضوره . ومرة كمان يا سادة) .

(صارخة): — اطلع برا !

(آه ! والنهار يعقب الليل والليل يعقب النهار بميكانيكية لا يفهمها الا ذلك الاعمى عازف الناي الذي يمر امام البيت كل مساء في طريقه الى الكهف في حدود الصحراء، ذلك الذي يطلق في اعقاب نايه الحزين كوكبة من الاصوات الهامسة الباكية فتصعد اليه من ارجاء الحديقة المهجورة والبئر العميق ومن ذلك القطار الذي يقطع الارض المقفرة هناك بعيدا عن كل شيء حي وهو يصفر صفيرا ممدودا يعالج به وحدته الخانقة . والصراع دائم دوام الكون بين الانفاق والكباري ، بين الطين والنجوم ، بين الرحم المظلم والفراغ المخيف ، بين ...)

— المسطرة راحت فين ؟

ومسح من عينيه دمعتين وقام ببطء وسار الى الدولاب القديم واخرج منه اغنية قديمة . وبحث بين اكوام التراب عن كتاب اثير عنده، وفاض البيت بموجات من الانغام والالفاظ تمضي تحت عينيه في زحف رائع كأنه حركة راقصات في عيد ميلاد طفل .

(الحب المطلق هو الموت الاكيد . لان الحب المطلق هو الثقة والهدوء والامن والاستقرار والسلام ، هو النوم بلا احلام واليقظة بلا خوف، هو ...)

— المسطرة راحت فين ؟

(صوت باب يغلق. يرمي المسطرة بوحشية) : — فلأكن الليلة انا !

— يا سواق! يا اسطى يا سواق ! عاوز علبة لحم مقفولة. فاهم! مش عاوز لحم سايب

اللي يسوى واللي ما يسواش غرف منه وحط ايده منه ! فين الاقيه ؟

– قدام !

وفجأة ضرب جبهته بعنف مروع وصرخ صرخة ممدودة خرجت من اعماق حنجرته واندفع جاريا الى غرفة النوم وقذف بقدمه الخف فطار في الهواء واستقر فوق الدولاب وخلع ملابسه ورماها وهو يجري فاستقرت كل قطعة في مكان . واسرع الى الحمام وبقفزة واحدة وجد نفسه داخل البانيو وفتح الصنبور الكبير ورفع وجهه الى اعلى فاستقبل الماء الغزير بعينيه وفمه وهو يهمهم ويولول ويعوي وكأنه بهيم وحشي . واندفع من الحمام والماء يقطر منه الى وسط البهو وعوى عواء طويلا حادا تزلزلت له صورها المعلقة على الجدران . وختم الصيحة بالفاظ من لغات مجهولة لا يعرفها احد ، ثم اخذ انفاسا سريعة وجرى الى المطبخ واشعل الموقد الكبير واختطف هبرة من اللحم قضم منها ثم القاها في الاناء. ثم اسرع جاريا الى البهو مرة اخرى ووقف وادار عينه في المكان ، ولمح التلفزيون فاسرع اليه وفتحه . فخرج اليه رجل افندي قبيح منتوف الحاجبين يرمش بعينيه وكأنه امرأة غزية، فبصق عليه واسرع الى السلك وشد منه الفيشة ورماها باقصى قوة فسقطت بين الاعشاب الهمجية التي تنمو في الخرابة المقابلة . ولفحه الهواء البارد فثلج جسمه العاري فهوى كالقط واسرع الى الفراش وارتمى عليه ومد ذراعيه كالمصلوب واغمض عينيه .

– الهمجية بنت الهمج !

وقام ببطء . (هذه ليلتي وحدي) . ومشى الى مكتبه . (مع كل الاشياء الجميلة) . واطلق النغم السجين . (مع احزان الجنس الازلية) . وفتح الستائر الثقيلة. (مع محاولاته الجنونية ليكون الله) . ومد يده الى كتابه الاثير . (الف بكر تغني والملائكة) .

– فلأكن الليلة انا !

(قيصر : السماء مرسومة بما لا يحصى من الشرارات
وكل منها نار موقدة وكل منها تضيء) صوته يرتفع:
(ولكن واحدا منها فقط يظل في مكانه ابدا)
وقع اقدام خفيفة في بهو البيت . ينصت قليلا ثم يقرأ :
(والعالم مزود جيدا بالرجال
والرجال لحم ودم وادراك).
وقع الاقدام يشتد . ينصت . بصوت منخفض :
(ولكن في كل العديد لا اعرف الا واحدا)
وقع الاقدام يصبح كالطبول . هامسا :
(في مكانه المرتفع لا ترتقي اليه الايدي
والعواطف لا تهزه

وانا ذلك الرجل)

صارخا : كنج !

فقد اندفع الى قلب الغرفة كالعاصفة لا يعترضه شيء الا اكتسحه ، ثم برق في الغرفة وطار فوق الفراش وهبط من الناحية الاخرى واختفى .

— كنج !

(واندفع يدور في البيت كالاعصار، ثم اندفع الى الغرفة مرة اخرى وقفز فوق الفراش ومنه الى الدولاب . ثم رأى مسمارا في الحـــائط فطار اليه وسقط على الارض وانقذف كالصاروخ ومرق فوقي واطاح بيولينوس قيصر وانقض عليه باسنانه ومخالبه) .

— كنج سيب الكتاب !

(واندفع مرة اخرى والكتاب بين اسنانه، فاسرعت وراءه الى باب الغرفة واغلقتها بالمفتاح. ومن بعيد ترامت اليّ اصوات تحطيم الاطباق والاكواب. حطم الاسطوانة الوحش. وتراجعت على اطراف اصابعي الى الفراش ، وما كدت افعـل حتى ارتد مرة اخرى على باب الغرفة يخدشه باظافره ويعوي عواء وحشيا متصلا ، فاسرعت الى البـاب ارجوه ان يهدأ . ولكنه كان قد اندفع الى الشرفة يبعث استغاثاته المروعة عبر الهواء .

في تلك الليلة لم انم دقيقة واحدة . كان الشارع قد امتلأ بصيحات القطط. لقد وفدت من آخر احياء المدينة ، جاءت وفي رؤوسها كل الظلام الوحشي الذي رسب في دمائها عبر ملايين السنين . كانت كلها تدور وتدور حول البيت ، لا يكاد احدها يلمس الآخر حتى يتحفزا لقتـال دموي ثم يعدلان في اللحظة الاخيرة . وكان كنج يشهد هذا فاعتلى السور ووقف يطل عليها ويناديها .

كان وحشا جميلا تتفجر من وجهه شواهد القوة والشراسة ، وقد رأته القطط جميعـا فاشتد صراخها وازداد غضبها ، ثم تفجر العنف فجأة بين صفوفها فقامت بينها معركة بشعة قاسية لا رحمة فيها ولا رفق . كل قط فيها خصم ومصارع لجميع القطط الاخرى . وقد طال المشهد المخيف وانا ارقبه مرعوبا من غرفتي، كل قط يعض ويهبر وينقض ويجري ويقفز ويصرخ ويتلوى ويستلقي ويخدش بلا توقف ، والنذل يصرخ ويوشك ان يقفز اليها ليشترك في المجزرة . ثم جاءت القطط الصغيرة والامهات ، والقط الصغير لا يملأ الكف من ضآلته ولا يستطيع ان يمشي الا بصعوبة ، ومع ذلك فقد نثر شعر ذيله واندفـع الى قلب المعركة . ثم جاءت الكلاب، والكلب الواحد كفء لاكثر من قطين. لقد جاءت اسراب الكلاب من الصحراء القريبة ودخلت الميدان ، ولكنها لم ترَ ما رأت حتى تراجعت ببطء ومضت الى حدود الميدان ترقب المعركة في صمت . لم يحاول واحد منها ان يتدخل ، بل ان قطا هائجا اندفع الى صف الكلاب، وصفع اكبرها على وجهه فلم يتحرك الكلب مطلقا،

و اقعى القط امامه لحظات وهو يهدد ويزمجر طالبا القتـال ، فلما لم يجد فائدة انقلب عائدا الى الميدان وهو يصرخ من جديد ويقتتل مع اول من لاقاه في طريقه) .

(ما فيش فايدة !)
— يا سواق الحقني ! عاوز علبة لحم فورا . الليلة ضروري !
— ما فيش . السوق جبر .
— لا . لا . لا . ضروري يا اسطى . انت عارف المدينة .
— ما اعرفش . يمكن فوق . بعيد .
— فين ؟ فين ؟
— فوق عند الهرم .
— اكيد هناك تلاقي .
— يمكن . فيه محلات هناك بتسهر للصبح !
— ياالله بينا . ياالله .
— الفجر دخل . باقول اقضيها باي حاجة .
— ازاي يعني ؟
— اي حاجة .
— ازاي ؟ اطلع يا سواق .
— اركب ! مع ان فيه ناس ما يقربوش منه لو تقطع ...
— دول مواشي . خرفان . زود السرعة ! زود ! زود ! زود !
(الطريق خاوٍ ، ليس فيه اثر لمخلوق . رائع !
النخلة اليتيمة التي يستند اليها شرطي الليل ما زالت هناك . رائع !
البيت ما زال قائما ولا صوت حوله ولا حركة . رائع !
التوأم ظل نائما طوال النهار ودرات امه في البلد تنادي من كانت تحبس قطا فلتفرج عنه.
امرأة ضربت قطا على ظهره فازرق ظهر ابن العمدة ونشب القتال بين الصعايدة في الحال.
اذا كانت علبة اللحم معنا فمن ...)
لا صوت ، لا حركة ، لا شيء .
— يا علبة اللحم !
(كيف كانوا يصارعون الوحوش في روما القديمة ؟
لا بد من حربة او شبكة حديد .
او فسخ فكيه كما فعل شمشون مع الاسد المسكين .

لكن ابعده عن المقاتل ، عن العنق، لان فيه قناتين توصلان الدم الى المخ، وهذا مهم.
انا لست ندّا لاي قط.

تفزعني رؤية السحالى والجرذان . ليس فيّ الا لسان ، ولو صمت هذا اللسان لما كانمن المستطاع بيعي في سوق العبيد بفلسين .

لو عرفت ! يا للكـارثة ! لن تسمح لي بالعمل في خدمتها ولا العيش معهـا . ثم تلك الاشياء الاخرى اللذيذة . لن تسمح لي بها قط .

ها ... !)

فتح الباب ، ولم يدخل بل مد ذراعه الى اقصاه واضاء النور ودخل ، وحرص على ان يترك الباب مفتوحا ، وتقدم برفق وحذر تام ، وادار عينيه في البهو الواسع ، فاذا بكنج كاتوس يجلس على الاريكة الاثيرة عنده .

— كنج ، مساء الخير !

ولم يهتم كنج على الاطلاق لم ويبتسم .

— لحم يا كنج .

واسرع الى آخر البهو يضيء المصابيح البعيدة ، واستدار فاذا بكنج كاتوس يقف على الباب ، نصفه في الظلام ونصفه في النور .

— كنج ، انظر ، لحم !

وخطا خطوة اخرى الى الخارج .

— لحم يا مجنون !

ورفع عينيه ونظر ثم تقدم خطوة اخرى واضحى كله في الظلام .

— كنج ارجوك . لحم !

ولكنه لم يسمع . لان كفيه كانتا تتحسسان الارض الغريبة الاليفة معا، وكأنهما انامل رقيقة تبحث عن نغم غامض على اوتار مجهولة، نغم ارتد اليه في تلـك اللحظة عبر ملايين السنين ، عبر ذكريات كامنة في تلافيف المخ وظلماته المخيفة ، عبر اجداد وجبانات وعظام وجلود وجثث وهياكل ودماء ولحظات اشتهاء مجنونة وومضات خوف قاتل ونوم متيقظ ويقظة مرعوبة، عبر طبول بربرية وحرائق عظمى وفحيح وعواء وزئير وجري عبر سهول جوفاء وتسلق الى قمم جرداء .

— كنج ، لحم ! لحم يا غبي .

ولكن حواسه كلها كانت بعيدة كل البعد عن عالمنـا الصغير المرسوم . لم يسمـع على الاطلاق، لان رائحة الياسمين كانت تستلقي في تلك اللحظة على هواء الفجر اللزج باسترخاء

انثوي مثير ؛ لان اصوات الجنادب والضفادع والسحالى وام قويق والملك لقلق كانت تملأ الارض ؛ لان حزما من نور ثلجي كانت تتخلل الاوراق والاغصان ، وكأنها صادرة من اللانهاية ببرود واصرار ورائحة الموت والفناء تملأها ؛ لان عيونا كانت تلمع في الظلام ثم تختفي واقداما تجري ثم تتوقف، وعواء يعلو ثم يختنق ؛ لان سيمفونية الليل المجرم كانت تعزف في تلك اللحظة باقوى ما عند الليل من صمت وظلام وقوة فيها الغدر اللامتناهي المحوط بالاسرار ؛ لان شيئا ما وكأنه صراع مكتوم مرير كان يملأ الدنيا ، صراع بين قاهر ومقهور ينتهي دائما بالانتصاب ثم بالانتصار ثم بالاخصاب ثم باللبن المدرار .

— كنج ، انا لا اخدعك . اسمع .

(وادار اليّ رأسه ونظر اليّ بعينيه الجميلتين الواسعتين، واقسم بالله ثلاثا انني رأيت فيهما شيئا جديدا. كان فيهما عطف ورثاء. رأيت فيهما عيني جدي الذي دفناه في جبانات الصعيد فوق تل لا يبلغه ماء النيل في ارض نحن نعرف انها تجفف الاجسام ولا تفسدها . رأيت عينيه عندما كان يراني ثائرا . كان يكتفي بقوله : غدا تعرف ! وماذا اعرف ؟ يوم ان تصل الى السن التي لا تستطيع ان تغضب فيها من شيء ولا تأسف على شيء ولا تتمنى ولا تتوقع ولا تحزن . يوم ان يصبح الزمن بالنسبة لك صفرا لا قيمة له).

— كنج ، حبيبي . الموت .

ولكنه لم يسمع ، لان ثمة غدة جهنمية ملعونة كانت تضخ في جسمه كل ما اختزنه من افرازات للحظة الموت ؛ هي نفس الغدة التي تدفع الارض للدوران وتغري الشمس على احراق نفسها؛ هي نفس الغدة التي تدفع الثور للجري والنطح والاندفاع وتحطيم الاسوار؛ هي نفس الغدة التي تدفع المخمور لخلع ملابسه كلها والجري عاريا في الميدان ؛ هي نفس الغدة التي دفعت جنكيز خان لحرق بخارى و سمرقند ، وحبب اليه الانصات الى بكائيات مروعة من افواه مائة الف امرأة حشدن باسنة السيوف والرماح للفرجة على مصارع ابنائهن والفسق ببناتهن العذارى ؛ هي نفس الغدة ...

(ومر ابو دقيق صغير فطار كنج وضربه بكفه ووضع يده فوقه ونظر اليّ) .

— كنج ، اسمع . معي ...

ورفع كنج يده فطـــار ابو دقيق ثم سار ببطء الى اللحم ونظر اليه . ثم دار حوله وفي مثل لمح البصر قفز في الظلام واختفى .

— اهلا . اهلا . اهلا . البحر عمل فيك عمايل .

— فين كنج كاتوس ؟

— لونك رائع ! اسمر وجميل . اراهن ...

– فين كاتوس ؟
– الا قولي لي . انت ...
(تستدير اليه) : – كاتوس مشى !
– اه ؟ لا . تلاقيه هنا ولا ...
(صارخة) : – كاتوس مشى !(ترحف عليه):– وانت،انت السبب. نزلت كل ليلة تسهر مع اصحابك الهلس وسبته وحيد من غير لحم .
– ابد . كل يوم لحم .
– وانت اللي اخذته .
– ابدا .
– انت .
– ما حصلش . اسمعي .
– انت الاناني القذر .
– كذب ، اقسم بالله .
– تقدر تثبت ان هو اللي كان بيأخذ اللحم ؟ تقدر ؟ رد !
– انا ...
– رد ! اثبت !
– اسمعي !
– رد ! اثبت !
– قبل ما تعملي اي حاجة ، اسمعي .
– رد ! اثبت !
– الله ! انا مش قادر انطق .
– تخطف اللحم من مخلوق اعزل مسكين .
– ماحصلش .
– اثبت !
– انا بنفسي كنت بانزل كل يوم .
– مش حتقدر تثبت ابدا ان هو اللي كان بيأخذ اللحم. المسكين! احتمل الجوع يوم واتنين وتلاتة . وكل ليلة لغاية الفجر ينتظرني ! وليـل نهار يترجاك بالدموع في عنيه . (تبكي).
– حبيبتي .
– و فجأة فقد الامل . تصور اني هجرته ، واني مش حارجع له تاني . وانا شايفـاه

قدامي وهو طـالع من البيت حزين والدموع مـلو عنيه . وهناك وقف تحت الشجرة . (تنفجر باكية).

(صارخـا) : — كنج كاتوس كان نذل !

— اخرس !

— كان نذل !

— قديس !

— حيوان !

— شهيد ! وانا عارفة مشى ليه . هو راح ينتحر بعيد عشان يوفر عليّ العذاب، عشان يسبني اعيش بالامل . يا عيني عليك يا حبيبي . (تبكي) .

— طيب ، بصي هنا .

(بخوف): — فيه ايه ؟

— بصي هنا . جنبك !

(بخوف): — على الكومودينو ؟

— ايوه على الكومودينو .

— فيه ايه ؟ (تتقدم بحذر) : الله . دي بقايا ...

(منتصرا): — من بقاياه !

(باشمئزاز بالغ): — افرازات !

— افرازاته !

— اوه . (نادبة) : امي ... الريحة . الريحة . الريحة .

— وعلى السجادة .

— لا . (تجري الى السجادة) .

— وفي الصالون .

— لا . (تجري الى الصالون).

(يتبعها): — وعلى الشيزلونج الحرير.

(تجري اليه) : — لا .

— وعلى كنبة كليوباترة . (تجري اليها).

(يتبعها) : — آه .

(تجري) : — وعلى فوتيه لويس السادس عشر .

— آه . (يتبعها) :

— وعلى ملاية السرير الزرقاء .

— آه . (يجريان معا حتى نهاية المشهد).
— وعلى الهدوم في الحمام .
— آه .
— وفي البانيو .
— آه .
— وعلى التسريحة .
— آه .
— وعلى الدريسوار .
— آه .
— وفي الصالة وفي اودة الضيوف . (يجريان كل في ناحية باقصى سرعة .)
— وفي المطبخ في الحلل والاطباق .
— وعلى مجلات المودة اللي انا جيباهم من باريس .
— وفي المحارة اللي بتنام فيها عروستك .
— وفي عربية الطفل .
— وعلى صورتك في الصالون .
— على الحيطان ، لا ، والسقف .
— ايوه وفي قلب النجف من جوا .
— وفي التلاجة .
— ووراء تمثال المصارع .
— وفوق دماغه ، وعلى رسوماتك والعمايز .
— وقمصانك والعطور والاصباغ . زرع الارض .

وقد مضى النهار بعد ذلك وجاء الاصيل ومن بعده الغروب وحل بعدهما المساء ومضى الليل في طريقه المرصود واسرع موليا نحو ساعة الظلمة العظمى والصمت المطلق ، وهي جالسة مذهولة عن ذلك الذي يمضي غير محسوس ولا ملموس ، مسنودة الظهر الى جدار بجوار الباب حيث جلست منذ ان دخلت البيت ونادت ولم يرد نداءها احد ، وظلت كذلك الى ان اقتحم الغرفة فيلق من الهوام بالطنين والمخالب وشفاطات الدماء . فقامت ببطء وتعكزت على عصا ومضت محنية الظهر ، فاغلقت الباب بالمفتاح واحكمت صنابير الماء واطفأت الانوار جميعا ، ولم تجد بعد ذلك ما يدعو لارتداء القميص الحريري الذي يشي بكل شيء ولا يمنع الوصول الى شيء .